المقتطف

الجزء الحادي عشر من السنة السابعة ، حزيران سنة ١٨٨٢

الخطبة السنوية[1]

لجناب الدكتور كرنيليوس ڤان ديك

اعضاء المجمع

اذ قد خصصتموني من بين كثيرين اكثر اهلية مني لاخاطبكم في جلستكم السنوية الاولى هذه فاقبلوا لتقدمة شكري لسبب نظركم اليّ نظرًا مكرمًا واعذروا تأسفي على انتخابكم العاجز الظالع عوضًا عن المضطلع الضليع

ان هذه الجلسة السنوية قد خالطها الحزن والاسف على فقد واحد من اعضاء مجمعنا اعني الشهير المجتهد المؤلف البارع الجهبذ التحرير عزتلو بطرس افندي البستاني الذي خطفته المنون من بين ايادينا خطفًا فترك جمهورًا كبيرًا من محبي الوطن يتاسفون على خسارة لا يدركها الا من عرف قيمة رجال العلم وصعوبة مسالكه بيننا في هذه الايام ولكنه ابقى لكل شبان سوريا قدوةً ومثالًا من جهة نصحيته كل قواهُ لصالح الوطن ومن جهة قلة التفاتهِ الى المنافع الخاصة ونظرهِ الى المنافع العامة وايضًا من جهة اجتهادهِ الدائم رغمًا عن كل الظروف المضادة باذلًا صحتهُ وجسمهُ لكي يكمل المشروعات المفيدة التي شرع بها حتى صار مستحقًا ان يُذكَر بين المشاهير المدوَّنة اسماؤهم في كتاب سرّ النجاح . فلنذكرهُ متاسفين عليهِ كل الاسف ومن وقت الى وقت لنقصّ سيرتهُ على اقراننا لكي يقتدوا بهِ

هذا وقد جرت العادة في الاجتماعات السنوية للمجامع العلمية ان يقدّم خطيبهم ملخّص اجلّ الاكتشافات العلمية الواقعة في السنة السالفة ولكني ارتأيت ان اخالف هذه العادة وان

(١) خطبها في الجلسة الاحتفالية لمجمع العلمي الشرقي في ٢٥ ايار ١٨٨٢ . انظر الاخبار

اعرض عليكم عوضًا عنها بعض الملاحظات من جهة ما يؤول الى نجاح المجامع العلمية عمومًا ونجاح مجمعنا خصوصًا وما اقولهُ في هذا الشان مبنيٌّ على ما شاهدتهُ واختبرتهُ بقيام عدة مجامع وسقوطها وخيبة جملة من المشروعات الحسنة الآيلة الى ترقية البلاد وتحسين احوالها "بالله درعًا منيعًا لو جمد"

(١) الامر الاوَّل الذي اعرضهُ عليكم والذي اراهُ اشد ضرورةً لنجاح المجمع هو قصد الدوام . فمن بات ليلة في خان بجانب الطريق يسوغ لهُ القول "في ليلة يامكارٍ" وعابر السبيل ليس لهُ ان يغرس غرسًا ولا ان يزرع زرعًا ولا ان يبني بناء وكذلك الاجنبي الذي يحضر لكي يجني جنًى او لغرض آخر فيعود الى بلادهِ لا يكلف نفسهُ شيئًا الَّا ما هو ضروري لمصلحتهِ فلا يهمهُ هل دام العمل او زال بعد ذهابهِ "بعدي الطوفان" . اما انتم فلستم عابري السبيل ولا اجانب فلا يسوغ لكم ان تتصرفوا كالمستأجر بل كصاحب الملك ومهما زاد الملك قيمةً فذلك عائد الى صاحبهِ . فانووا والحالة هذه الدوام ورتبوا اموركم وضعوا اساساتكم على قصد الدوام والزيادة مثل الباني الماهر الذي يرسم اولاً رسم بنائهِ في كل اقسامهِ ونسبة بعضهِ الى بعض حتى اذا لم يستطع هذه السنة ان يبني غير القليل يكون الذي يبنيهِ جزءًا حسنًا من البناء الكامل مرتبًا موضوعًا على كيفية تجعلهُ جزءًا لائقًا من البناء عند تمامهِ فلا يلزم ان يهدم شيئًا منهُ ولا يذهب شيء من تعبهِ سدًى وعلى هذه الكيفية كان ابتداء الجمعية الآسيوية الملكية في الهند والجمعية الشرقية الالمانية والجمعية الفلكية الملكية والجمعية الجيولوجية الملكية الخ .

نعم ان تقلبات الاحوال ومرور الايام واضطرار المعيشة وما شاكلها ربما لا تسمح بان يبقى عددكم الاصلي الى زمن مديد بل باقي عوضًا عنكم آخرون ولكن اذا كنتم انتم قد اسستم اساسًا متينًا عميقًا عريضًا ورتبتم قوانينكم ومقاصدكم لا بناء على انها تزول وتتلاشى بعد مدة بل بناء على انها تنمو وتزيد وتدوم فتبادل الاشخاص فلما يضر وان لم تتصرفوا على قصد الدوام والثبات فتى انحلت عقدتكم الاولى وذهب بعض عددكم الاول مات المجمع لا محالة

(٢) الامر الثاني الذي اذكرهُ هو مما يؤول الى تحصيل الاول اي اذا قصدتم الدوام والثبات فاعنوا كل الاعتناء باختيار اعضائكم . قلتُ انهُ اذا وُضعت الاساسات على ما ينبغي وترتبت امور المجمع كما يقتضيهِ قصد الدوام فتبدُّل الاشخاص او تغيُّرهم قلما يضرُّ بصالح المجمع ومثلهُ مثل الدولة المبنيَّة على مبادئ حقيقية معلومة فلو مات الملك ورجال الدولة او تغيَّروا او تبدلوا ثبت على مبادئها وشرائعها ومقاصدها وهكذا المجمع ولكن على شرط ان لا تضيفوا الى عددكم الاول الَّا من كان قلبهُ على قلبكم

جذبتكم الالفة الشخصية، ولائم اتفاق الاغراض والمقاصد الى نظم انفسكم مجمعاً علمياً تعود فوائده الى انفسكم والى الوطن وفي اول الامر لابد من ان تجدوا بعض الصعوبات في طريقكم ولا ريب انكم تتكلفون الى اجتهاد غير اعتيادي ربما يبلغ درجة التعب الشاق حتى تركزوا الجمع على قوائمه وتخرجوه من حيز التفكر والتصور الى حيز الجسم والفعل وفي مدة اتعابكم هذه الاستنتاجية لا تردحم عليكم طلبة الاشتراك معكم بل بالعكس فربما تلتزمون ان تفتشوا عن ارواح نجانس ارواحكم "بالسراج والفتيلة" فاذا وجدتم مَنْ يعشق العلم عشقاً ويتحمل الاتعاب الشاقة لكي يتقدم في المعارف ولا يبالي بتعب عقلي ولا جسدي لكي يحصل مطلوبه ومن غالب الظروف المضادة بواسطة كدّه وجدّه ليلاً ونهاراً حتى نقل نفسه من وهدة الجهل واخذ يصعد في سُلَّم المعارف وان لم يكن قد ارتقى الا درجات قليلة منها فهذا اضموه الى انفسكم لانه راس واود ان تكونوا جميعاً رؤوساً لا اذناباً فالذي هو على الصفات المشار اليها انما هو راس طبعاً وان وُلِد في احوال وظروف غير دالة على ذلك باعتبار الجمهور ولا بدّ ان يظهر نفسه على قيمتها الحقيقية ويملك مقام الرؤوس . اما مَنْ لا يهتم الا بان يكون له اسم بين اسماء خدمة العلم بدون ان يقاسي المشقات في طلبه ومَنْ يستنكف من البحث بنفسه او يتكاسل عنه ويقتصر على ترجمة بعض الفصول من لغة اجنبية ولا يرضى بان يقاسي مشقة في كشف حقيقة فمثل هذا اجتنبوه لانه يكون لكم مثل كسر الجاح للطائر او مثل حجر الرحا في عنق السابح فاذا نجح الجمع باتعابكم واجتهادكم فلا بد ان كثيرين مثل هولاء يطلبون الانضمام اليكم والاشتراك معكم . فالحذر ثم الحذر من التساهل بهذا الخصوص لانه يلزمكم مشتغلون لا متفرجون . فكم عرفت من جمعيات علمية وغيرها سقطت بسبب اضافة اشخاص اليها من الذين لم يكن لهم اتحاد قلبي باغراض الجمعية ومقاصدها بل كانت لهم غايات شخصية او ما ماثلها . فراس واحد من الرؤوس الذين اشرت اليهم افضل من الف ذنب من الاذناب

(٣) ثالثاً . ليكن لكل واحد منكم فرع علمي او ولع خاص به وليشتغل كل واحد في فرعه الخاص او في موضوع ولعه الخاص

انه في الصنائع والاشغال الاعتيادية قلما يستطيع احدٌ ان يبرع في اكثر من صناعة واحدة وعلى هذا المعنى قول المثل العامي لا تُمسك بطيختان باليد انواحدة وان كان الامر كذلك في الصنائع اليدوية فكم بالاحرى في الامور العلمية العقلية

انه في الايام الماضية كانت دائرة العلوم والمعارف ضيقة نوعاً بالنسبة الى ما هي عليه الآن والحادق المجتهد استطاع ان يملك جانباً كبيراً منها ومع ضيق دائرتها النسبي كان العلماء المحققون في تلك الايام ايضاً يتخيرون قسماً واحداً من الدائرة ليشتغلوا فيه وعلى هذا المعنى ما رُوِي عن

احد النجاة انهُ في ساعة احتضاره تأسَّف على اشتغالهِ في عدة مواضيع نحوية عوضًا عن الانحصار في موضوعٍ واحدٍ منها قال قد خسرت اتعابي وفرَّقت قوتي باطلاً فلو حصرت شغلي في حرف الشرط فلربما استفدتُ وافدتُ . والمعنى اجمع الماء حتى يعوم سفينة تحمل اكبر المدافع ولا تمهُ حتى يرق فلا يعوم الاَّ اخف الزوارق . وفي هذا العصر اتسع كل قسمٍ من دائرة المعارف حتى بعجز احذق العقول وابلغ الاجتهاد عن استيعاب ما فيهِ . اما في الايام السالفة فكان الكيماوي يشتغل في المواد الآلية وغير الآلية جميعًا والآن يكتفي ويفضل عنهُ البحث في مركَّبات الكربون وحدهُ . وكان المتضلِّع في علم الهيئة يشتغل في السيارات والثوابت والمذنَّبات والاقمار والشموس معًا والآن تكتفي الكلف على وجه الشمس وحدها وكان المتضلع في علم الحيوان يجمع من كل الاجناس ويتفنَّن في كل الانواع والاشكال من كتلة البروتوبلاسم الى اعظم الافيال والحيتان والآن يكتفي جنس واحد من الهوام فقط . وكان العالم في علم النبات يشتغل في كل النصائل والطوائف من "الزوفا النابتة على الحائط الى ارز لبنان" والآن تكتفي فصيلة واحدة وربما لا يستطيع ان يستوفي حقها وقس على ذلك . اعني بعدما تكتسبون شيئًا من الخبرة في كل قسم من دائرة العلوم او في عدة منها فلينتخب كل واحدٍ لنفسهِ قسمًا وليجعلهُ شغلهُ او ولعهُ وليحصر فيهِ على قدر اللزوم وليجتهد على توسيعهِ وايضاحهِ وابلاغهِ اعلى قمم التحقيق في كل متعلقاتهِ . ولسبب تعلق المعارف بعضها ببعض وكونها باَلافراد جزءًا من نظام غير متناهٍ صادر من عقلٍ غير متناهٍ فلا يستطيع احدٌ ان يدرك منها قسمًا ادراكًا كاملاً ما لم يدرك شيئًا عن سائر الاقسام كما ان الطبيب لا يستطيع ان يدرك امراض عضوٍ واحدٍ بدون ان تكون لهُ بعض الخبرة بكل الاعضاء لسبب تعلق بعضها ببعض وفعل كل واحدٍ بالآخر . فاذًا لاجل النجاح التام يقتضي ان يكون اجلّ اجتهادك وبحثك محصورًا في قسمٍ واحدٍ وفيهِ تتقدَّم وتبهر وتبلغ درجة عالية وتستطيع ان تفيض من غزارة علمك بموضوعك الخاص على اخوانك وهم من غزارة معرفتهم بمواضيعهم الخاصة يفيضون عليك فتفيد اكبر افادةٍ وتستفيد اعظم فائدة . حتى ان المتوسِّط في المواهب والقوى العقلية اذا انحصر في امرٍ واحدٍ يتفنَّن ويفوق الآخرين فيهِ ويفيد من جهتهِ

رابعًا . ان ما قد قلتهُ من جهة انحصار كل واحد في دائرتهِ الخاصَّة لا ينافي شغلهُ في غيرها اذا اتفقت الظروف المناسبة لذلك بل ينبغي ان يكون كل واحدٍ على استعداد لكي يلقي فلسهُ في خزانة اي قسمٍ كان من دائرة المعارف غير قسمهِ الخاصّ ولذلك يقتضي ان يكون لكل واحدٍ خبرة بما هو المطلوب وما هو المجهول في كل قسمٍ من دائرة العلوم وما هو الخلل والنقص فيهِ وما هي الوسائط لسدّ الخلل وجبر النقص . مثالهُ ان جملة المسائل المجهولة الى الآن في علم الهيئة هل بين

عطارد والشمس سيارا او اكثر من سيار واحد وقد ذكر بعضهم مرور ظلول على وجه الشمس رُئي انها من قبل جسم بيننا وبين الشمس أتى ظلهُ عليها وهو مارٌّ في فلكهِ وربما يتفق لاحدكم ليس على الهيئة شغلهُ الخاص ان تحدث لهُ فرصة مناسبة للملاحظة عند الامر وتحتينهِ اذا عرف المسألة وعرف الافتقار الى تلك الملاحظة لاجل حلها وان لم تكن عندهُ خبرة بالمسألة مطلقًا تموتهُ الفرصة

منذ ٣٠ سنة فيكف اصدرت احدى الجمعيات العلمية كتيبًا معنونًا "What to observe" اي ما هو المطلوب ملاحظتهُ وهو حاوٍ ذكر اجلّ القضايا المجهولة في العلوم الطبيعية وغيرها مما تلزم ملاحظتهُ في محال شتّى واوقات مختلفة حتى اذا اطّلع احدٌ على ذلك تكون عندهُ خبرة بالمسائل المجهولة المطلوب حلها او الممكن حلها بالملاحظة من جهة الجيولوجيا والمتيورولوجيا والكهربائية والحيوان والنبات والهيئة وعلم الانساب واللغات والتواريخ وسائر العلوم والفنون. وفي اللغة الجرمانية كتاب الف٢٨ مؤلفًا معنونًا ما تطلب ملاحظتهُ في السفر لاعانة المسافرين من كل رتبة على معرفة القضايا المجهولة العلمية حتى اذا اتفقت لهم فرصة حلها بالملاحظة في اسفارهم يكونون على استعداد لذلك. وربما ان المسائل العلمية تتغيّر من سنة الى اخرى فتحل بعضها وتجدّد اخرى فيناسب ان يصنع كل واحد لائحة في اجلّ المسائل التي تُطلب معرفتها في ما يتعلق بشغلهِ الخاص ويسلمها للآخرين ويستلم منهم مثلها في اشغالهم فيكون كل واحدٍ على استعداد لكي يلاحظ ما هو متعلق بشغلهِ وشغل غيرهِ. وربما اتفقت لهُ الفرصة الوحيدة للملاحظة ضرورية لاجل حل مسئلة عظيمة في علم من العلوم. فاذا اصطُنعت لائحة او شرح كالمشار اليها تسلم ايضًا الى بعض عامة الناس العقلاء في جهات مختلفة فيكونون على استعداد للمساعدة الكبرى في جملة ابواب وعدّة قضايا علمية. فالصياد والنوتي والغوّاص والراعي والبيّار والبستاني والفلّاح تتفق لهم الظروف اللازمة للبحث في عدّة قضايا علمية لا يتفق وقوعها لغيرهم فكلما عمّت المعارف جميع الرتب ساعدت جميع الرتب في توسيعها والواسطة المشار اليها ربما تعين على ذلك وعلى كل حال تعين اعضاء المجمع على المساعدة في غير ابوابهم الخاصّة وبذلك تتعدّد الالفة بينكم وهذه نتيجة كافية وان لم يكن غيرها

خامسًا. الامر الخامس الذي اذكرهُ مما اراهُ آيلًا الى حفظ المجمع وبنائهِ وتوسيع فوائدهِ هو جمع معرض من كل المواضيع العلمية وبعض الصناعية ولاسيما صنائع بلادنا السورية ومعاملها ومحاصيلها

ان هذا العمل ربما يوهم البعض بسبب عظمتهِ لانهُ يستدعي مالًا وبناء ورجالًا ولا تُنكر صعوبتهُ وربما يزعم البعض ان مثل ذلك لا يتم الّا بمساعدة الحكومة ولا شك ان مساعدة الحكومة امر كلي الافادة اذا حصل غيرانهُ في احسن البلدان واكثرها حرّية ونجاحًا تقول الاهالي للحكومة مثل ما

قالت "الفارة للقطة نحن بالف خير ما دمتِ بعيدة عنا". وجمع معرض من النوع الذي نحن في صددهِ لا يستدعي مداخلة الحكومة فيهِ رسميًّا فاذا ساعدت ببلغ من المال او بناء لائق فيا حبذا وان لم تساعد فلا باس. وبما ان هذا العمل لا يتم باقرب وقت بل يقتضي اعوامًا وسنين فلا باس من المبادرة الى الشروع فيهِ ولو على مبادي صغيرة حقيرة فليجمع واحدٌ في بيتهِ اشكال حجارة البلاد وصخورها ومعادنها وليعنونها ويرتبها على ترتيب جيولوجي ومعدني بكل ما هو متعلق بها وليجمع آخر اشكال الحبوب والنبات والاخشاب وآخر اشكال الصدف البحري وآخر اشكال الصدف البري وآخر اشكال الحيوان وآخر اشكال الطيور وآخر اشكال الهوام وآخر اشكال نتائج الصنائع والمعامل وآخر حجارة تاريخية وكتابات ومسكوكات عتيقة وقس على ذلك. فاذا جرى العمل على هذا النسق لا يمضي عليكم زمان الَّا وعندكم ما يعتبر وبفيد في كل اقسام المعارف ودوائرها وذلك بفتح الباب لجمع الكل في معرض واحدٍ وطنيٍّ شهير

وان قال قائل ما الفائدة من ذلك وما هي المنافع الناجمة عن معرض محلي حتى نتكلف بالاتعاب والنفقات اللازمة له اقول

(١) ان المعرض يعين المعلم والطالب على درس مبادئ العلوم الطبيعية. اما الكتب فلا بد منها ولكنها تزيد فائدةً بوجود المواد والاشكال المذكورة فيها حتى يراها ويلمسها الطالب بل ذلك ضروري في بعض العلوم مثل علم المعادن والحجارة والجيولوجيا والنبات والحيوان الخ

(٢) المعرض يعين المختص نفسهُ لقسم من المعارف ويمكنهُ من زيادة البحث فيهِ. مثالهُ ان جمع الاسماك المتحجرة من جبل لبنان ظهرت بهِ عدة حلقات من سلسلة تعيين الاسماك المتحجرة لم تُعرَف قبل وبذلك سدَّ خللاً في علم الحيوان وحقَّق بعض القضايا الكلية الاعتبار في ذلك العلم[1] ولا يخفى على ذي بصيرة كثرة الابواب التي من جهتها يستعين الطالب والباحث بمواد مجموعة تحت يدهِ

(٣) ومن منافع المعرض وفوائدهِ الدلالة على ترقية الاهالي في الصنائع واعمال اليدين او تأخرهم فيها وبيان الامور التي فيها تقدَّموا والتي فيها تأخَّروا ترغيبًا للناس في العمل والمطالعة والاجتهاد في الاعمال المفيدة عوضًا عن الاهمال والكسل واللهو بالباطل المضرّ. ولا داعي لاطالة الكلام في هذا المعنى لان الامر واضح لا يحتاج الى بيان ولا الى برهان

وما تقدَّم عن المعرض يصدق ايضًا من اكثر الوجوه على المكتبة لان الكتب الكثيرة الاثمان النادرة الوجود قلما يستطيع طالبٌ ان يقتنيها. وبما ان في الاتحاد قوة فباتحاد الجماعات يحصل

(١) ان الاسماك المتحجرة المشار اليها جمعها الدكتور أدون لريس وكان حينئذٍ استاذ الجيولوجيا في المدرسة الكلية السورية. وهي الآن في المعرض البريطاني بلندن تحت اسم مجموع الدكتور لريس

على الكتب المفيدة التي لا يستطيع الفرد ان يحصلها تحت طوْل كل فردٍ من اعضاء المجمع

اما الاعضاء المراسلون فان لم يستطيعوا ان يحضروا جلسات المجمع القانونية فانهم يستطيعون ان يعينوهُ كثيرًا على اجراء مقاصدهِ بارسال رسالات في المباحث العلمية وغيرها وبالرصود والملاحظات العلمية اللازم اجراؤها في اماكن كثيرة معًا لاتمام الفائدة ولا بد ان يعثروا على امور جيولوجية وتاريخية وجغرافية الخ كثيرة الافادة يتدرك كنهها

(٦) الامر السادس الذي اذكرهُ هو ان لا تكثروا الجلسات ولا تطيلوها لانهُ اذا توالت الجلسات وتقاربت يقع اعضاء المجمع المستوطنون في تجربة من جهة خفة العمل وتقديم شغل قليل الفائدة غير كامل خوفًا من التهمة بالاهمال او رغبة في اكثار الكلام . والعقلاء يفضلون تقديم ان لائحة او رسالة واحدة فقط في السنة وكانت مستوفية موضوعيًا حق استيفائهِ على رسائل كثيرة قاصرة قليلة الفائدة . فاذا طالت المدَّة بين جلسة واخرى وكانت الجلسة نفسها قصيرة لا يخشى من الملل بل تزيد الرغبة فيها لظن كل واحد انهُ يسمع ما يفيدهُ ويلذهُ ولا يكلف للحضور على شفشفة اللسان او سرد العبارات الطويلة القليلة المعاني

(٧) الامر الاخير الذي اذكرهُ لديكم هو ان لا تضربوا في البوق فان طالب الشهرة ليس من اغراضكم . واعمالكم تنم على ما تريدون بالسكوت والطرْ ولا تنمّ في احوال اخرى فاشتغلوا على السكوت وعلى المهل تنالوا غرضكم . وهب انكم تطلبون الشهرة فانكم لا تنالونها بالقصد اليها . انها ظبية فتّانة مذعورة لا تأنس الى طالبها او عروس ذات غنج ودلال تشمخ على خاطبها بيضة خدرٍ لا يُرام خباؤها ولكنها تذلّل نفسها لمن يحتقرها . ان الذين اشتهروا في العالم لم يقصدوا الشهرة قصدًا بل كان قصدهم اتمام واجباتهم وكشف الحقائق وتوسيع دائرة العلوم فانتهم الشهرة رغمًا عنهم وعلى عدم مبالاتهم بها وقد شهد كل مَنْ حصلها انها انما هي قبض الريح

هذه بعض الامور التي تؤول الى نجاح المجمع وبنائهِ وربما اطلت الكلام فيها الى حد الاملال ولم اذكر لكم شيئًا جديدًا . غير ان الاعادة لا تخلو من الافادة وبين الخواطئ سهمٌ صائب

هيجان جبل النار اتنا

جاء في رسالة للتيمس في تاريخ ٢٦ آذار ان جبل النار اتنا ابتدأ في الهيجان في ٢٠ اذار فلم تمض سبع وعشرون ساعة حتى شعروا باثنتين وتسعين هزّة في مدينة مسّينا بابوليا واستمرت الهزّات بعد ذلك على ضعف ثم اشتدّت فشعر اهل نيكولوسي بهزتين عنيفتين في الثالثة والعشرين من الشهر